أنا والبؤسـاء

ذكرياتي مع البؤساء بدأت عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.. تلك الفتاة التي كنتها كانت تجلس في سريرها مستندةً إلى المخدة وتعيش سويعاتٍ في عوالم ورقيّةٍ ساحرة..

آنذاك تشكلت ملامح شخصيات فيكتور هوغو في خيالي مع أماكنها ومقتنياتها التراثية وبؤسها..

كبرتُ فنسيت أحداث هذه الرواية الرائعة وشخوصها.. ولكن منذ أشهرٍ وبؤساء فرنسا القرن التاسع عشر يلاحقونني على جدران المحطات وحتى داخل سيارات الأجرة فأتحاشاهم.. كان هناك دائماً ما هو أهم من الترفيه.. إلى أن جاءت اللحظة..

وهكذا برزت لي شخصيات البؤساء ثانية.. هذه المرة ليس في مخيلتي وإنما أمامي على منصة مسرح الملكة.. تقف لحماً ودماً وصوتاً وصراخاً وألماً ولحظات حب..

أما أماكنها فهي غير ما رسمته مخيلة الطفلة.. إنها تُنحتُ من الماضي وتعاكس الخيال فتجعله يستوحي منها ما يشاء ليكمل المشهد.. إنها خلابة.. كم أحب المسرح وفن السينوغرافيا..

ومع أن هناك كتّاب سيناريو ومسرحيين وشعراء صبوا في "البؤساء" وتخليدها كتحفةٍ أدبية، إلا أننا لا ننسى هوغو الذي صوّر لنا هموم مجتمعٍ في حقبةٍ زمنيةٍ معينة، وأبرز قيماً رائعة أغرت كتّاب هذا الزمن بإعادة تقديمها..

سمعت نشيجاً خافتاً من حولي عندما مات البطل.. ولكني لم أذرف دمعةً إلا في مشهد قتلى الثورة الفرنسية عندما تبدد الدخان وبدت الشخصيات التي ألفاناها لمدة قصيرة متناثرةً جثثاً هامدة.. لست بهذه العاطفية عادة، ولكن المشهد ذكرني بشهداء الجديدة وبانياس بسوريا الذين تناثرت جثثهم بسكاكين الكراهية، فبكَيْتُهم...

يا الله، لما يقرب من الثلاث ساعات وحتى ذلك المشهد، كنت بعيدةً عن واقعنا، ولكن الإنسان هو الإنسان.. والزمن هو الزمن.. كل حقبة تنخرها نواقص الإنسان فيهب الآخر للتغيير فيصيبه ما يصيبه ويتساقط هنا وهناك، كما تتساقط الحقب المنخورة في النهاية.. وما أروع من اختزن بؤس آنذاك في كتابٍ ما فتئ يذكرنا بهذه الحقيقة...

دعد خليفة

نشر هذا المقال بالملحق الثقافي لجريدة الشرق القطرية بتاريخ ٢٠١٤/٩/٢٨م
الصورة المرافقة أُخِذت من فيديو باليوتيوب، اسم المستخدم: Hussam Al-jammaly